

علم التاريخ والتراجم

الشيخ خالد بن محمد بن غانم آل ثاني
دولة قطر

التاريخ:

لغة: التاريخ والتوريق تعريف الوقت، تقول: أَرَخَ الكتاب أو وَرَّخَ الكتاب بيوم كذا أي وقته. (١)

وفيه لغتان: الهمز أَرَخَ لغة قيس، تقول: أرخته تأريخا، والواو وَرَّخَ لغة تميم، تقول: وَرَّخت الكتاب توريقا. (٢)

وهي كلمة عربية الأصل والمحتد، لا كما ذهب البعض للبحث عن أصل لها غير عربي، فزعم بعضهم أنها من بعض اللغات السامية، الأكديّة أو العبريّة، وذهب آخرون إلى أن أصلها من الإثيوبية، والبعض أرجعها للفارسية (٣).

اصطلاحاً: اختلف العلماء في تعريف التاريخ اصطلاحاً تبعاً لمتعلقاته وأغراضه، فذهب صديق حسن خان القنوجي إلى أنه: (معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم، ووفياتهم، إلى غير ذلك) (٤). وقال السخاوي: (فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم) (٥).

وقال ابن خلدون: (فن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى ... ، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات دقيق، وعلم

(١) الصحاح ج ١/ ٣٦٦، ولسان العرب ج ١/ ١١٣ كلاهما مادة (أرَخ).

(٢) الإعلان بالتوريق لمن ذم التاريخ ص ١٥.

(٣) المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، ص ٧٨.

(٤) أبجد العلوم ج ٢/ ١١٧.

(٥) الإعلان بالتوريق لمن ذم التاريخ ص ١٧.

بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق^(١).

وتلا حظ أخي القارئ كيف أن كلا منهم أخذ جانبا من علم التاريخ وركّز عليه في تعريفه، فالسخاوي مثلا ركّز على التوقيت، والقنوجي على الأحوال من حيث الأمور التي ذكرها، وابن خلدون ركّز على الحكم المستفادة من الوقائع وأسبابها، وهو بذلك يكون أول من قعد لفلسفة التاريخ، ومن أتى بعده كان تبعاله، وهي كلها كما ترى ليست بتعاريف جامعة مانعة، والتعريف الذي أراه لعلم التاريخ هو: كل حدث مضى، وحكمة إليها هدى.

فهو تعريف جامع مانع، لأن التاريخ إنما هو محتوى الزمان، فإن كان الزمان وعاء كان التاريخ فحواه، فكل أمر حدث فهو تاريخ، سواء تعلق ذلك بالأمور الحسية من إنسان وحيوان وجماد، أو معنوية من مشاعر وعلوم، فيدخل فيه تعيين التوقيت كتوقيت ولادة إنسان مثلا، وكذلك كل أحواله التي مضت من صحة ومرض، ويقظة ونوم، وأكل وشرب، ولبس ومركب، فكلها إن مضت فهي تاريخ، وكذلك تجاربه في الحياة وما يستفاد منها هي تاريخ أيضا، وهذا ينطبق على الشخص الفرد، وعلى العائلة والمجتمعات والدول والشعوب، فكلها يعتبر تعيين أحداثها وتواريخها، وكذلك أحوالها وعاداتها وتجاربها وما يستفاد منها، وهذا ينطبق أيضا على الحيوان والجماد، فللصخور مثلا تواريخ يعرف بها عمر هذا الصخر، ونشأة ذلك الجبل، فيقال: عمره كذا وكذا سنة، فإن قيل: هذا اختصاص علم الصخور "الجيولوجيا"، قلنا: له متعلق بالتاريخ، فعمره تاريخ، وكذلك ما يطرأ عليه بتعاقب الزمان تاريخ، وإنما أخرج علم الصخور من التعريف، أنه علم يتعلق بمركبات الصخور وغير ذلك. ويدخل في التعريف الحكم المستنبطة من هذه الحوادث، وما تدل عليه من سنن الله في خلقه والبشر، وما فيها من مواظب وعبر، وحكم لا يدركها إلا من سبر.

ويخرج من الاصطلاح توقيت تاريخ في المستقبل كتوقيت سفر قادم، فيقال: سأسافر في تاريخ كذا وكذا، لأنه أمر لم يحدث بعد، وإن كان يدخل في تعريف التاريخ لغة.

منزلته وفضله:

اعلم أن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، وأرفعها منزلة وذكرًا، وأنفعها عائدة وذخرا، وكفاه شرفا أن الله تعالى شحن كتابه العزيز - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه -

(١) تاريخ ابن خلدون، المقدمة ج ١/٣ - باختصار.

من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، بما أفحم به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب، ثم لم يكتفِ تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم، وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم، فقال جل جلاله: {تلك القرى نقص عليك من أنبائها} (الأعراف: ١٠١). وقال: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك} (هود: ١٢٠).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ما يحدث أصحابه بأخبار الأمم الماضية، ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم، ويقوي إيمانهم، ويؤكد فضلهم، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري رحمه الله كفيل بهذا الشأن، وآت من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان.

قال بعضهم: احتج الله تعالى في القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى: {يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} (آل عمران: ٦٥)^(١)، ويكفي بذلك فخرا وفضلا لهذا العلم الشريف، ولنخرج على ذكر بعض من فوائده وثماره.

فائدته:

لعلم التاريخ فوائد بعدد الرمال، لا تجمع بمثال أو مقال، وإنما نذكر منها اليسير، ليسير عليها الخبير:

١- العظة والاعتبار:

فإن في التاريخ لعبرا لأولي الأحلام، من تأمل تقلب الأحوال والأيام، ورأى عاقبة المحسن وما للمسيء من عقاب، {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} (يوسف من الآية ١١١).

٢- تثبيت الفؤاد:

فإن العزائم تقوى، والهمم تعلو وترقى، بقصص الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} (هود: ١٢٠)، وتسلية للقلب الحزين، {ولقد كذبت رسل من

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١/ ٥٩ باختصار.

قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإي المرسلين} (الأنعام: ٣٤).

٣- تخليد الذكر:

فيحفظ ذكره على مر السنين، ويدعى له في كل وقت وحين، وقد قال الخليل داعياً رب العالمين: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} (الشعراء: ٨٤)، فاستجاب الله دعاءه، وحقق له مراده.

٤- الاقتداء بأهل الصلاح:

فإنهم المثل الأعلى، وسبل الهدى، وقد قال الله تعالى بعد أن ذكر جملة من الأنبياء والمرسلين: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} (الأنعام: من الآية ٩٠).

٥- معين للفقهاء:

فيه يعرف المنسوخ من الأخبار، وما للناس من أعمار، إلى غير ذلك من فوائد كبار حكى بدر الدين القرافي رحمه الله أن الإمام الشافعي رحمه الله كان يقول ما معناه: دأبت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة، وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه. قال الناصري: معنى كلام الشافعي هذا، أن علم التاريخ، لما كان مطالعاً على أحوال الأمم والأجيال، ومفصلاً عن عوائد الملوك والأقوال، مبيناً من أعراف الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر، وحكمة بالغة لمن تدبر واقتكر، كان معيناً على الفقه ولا بد، وذلك أن جل الأحكام الشرعية مبني على العرف، وما كان مبني على العرف لا بد أن يطردباً طراداه، وينعكس بانعكاسه، ولهذا ترى فتاوى الفقهاء تختلف باختلاف الأعصار والأقطار، بل والأشخاص والأحوال، وهذا السبب بعينه هو السر في اختلاف شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام وتباينها، حتى جاء موسى بشرع، وعيسى بآخر، ومحمد بسوى ذلك، صلى الله على جميعهم وسلم.^(١)

٦- كشف الحقائق:

فبدراسة نشوء الفرق والطوائف، والأفكار والمعارف، يتضح لنا صاحب الحق من الزائف، والتاريخ شاهد للسنين، يظهر الحقيقة ولو بعد حين، وانظر إلى كثير ممن ظلم في زمنه، أو رفع فوق قدره ومنزلته، (فها إن أحمد بن تيمية رحمه الله يلاقي ما يلاقي في حياته ويموت حبيساً في قلعة دمشق، ثم ينصفه التاريخ بعد ذلك، ويميط اللثام عن فضائله

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/٥٩-٦٠.

وخصائصه، فيكون من أكبر الأئمة المقدرين في صفوف المتدينين الدعاة في أيامنا هذه، وها إن السلطان عبد الحميد يظلمه عصره حسب خطط أجنبية محكمة، ولكن بدأ التاريخ يميّط اللثام عن حقيقته، وشرع يعطيه المكانة التي يستحقها، وفي التاريخ الفرنسي نجد الملك لويس الخامس عشر يعيش محفوفاً بالتبجيل والتعظيم، مع أنه من أسوأ الحكام الذين عرفتهم فرنسا، غير أن التاريخ كشفه فيما بعد، وحقق ما كان يقوله فيه معاصره الفيلسوف الفرنسي التابعه فولتير: "مجدّوه مجدّوه فسيلعنه التاريخ". وقد لعنه فعلاً....^(١).

٧- فهم الحاضر ورسم المستقبل:

فالتخطيط للمستقبل لا يكون إلا بعد دراسة الحاضر الذي هو امتداد للماضي ونتاج عنه، فبدراسته يتضح لنا معالم الطريق، وسنن الله في النصر والتمكين، وأسباب هلاك الأمم الماضية، {سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} (الأحزاب: ٦٢). فهذه فوائد ودرر لعلم التاريخ وسير من غبر، ونختتمها بذكر هذا الخبر، قال الجلال السيوطي رحمه الله:

من فوائد التاريخ، واقعة رئيس الرؤساء ابن مسلمة علي بن الحسين المشهورة مع اليهود ببغداد، وحاصلها أنهم أظهر وأرسمًا قديماً يتضمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإسقاط الجزية عن يهود خيبر، وفيه شهادة جماعة من الصحابة، منهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرفع الرسم إلى رئيس الرؤساء، وعظمت حيرة الناس في شأنه، ثم عرض على الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي فتأمله وقال: هذا مزور. فقيل له: بم عرفته؟ قال: فيه شهادة معاوية رضي الله عنه، وهو إنما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة، وخيبر فتحت سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه، وهو مات يوم بني قريظة، وذلك قبل فتح خيبر، فشرّ الناس بذلك وزالت حيرتهم.^(٢) اهـ

وبالجملة ففضيلة علم التاريخ شهيرة، وفائدته جليلة خطيرة، ومادحه محمود غير ملوم، والحديث بفضل حديث بمعلوم، والله درابن الخطيب إذ يقول:

وبعد فالتاريخ والإخبار فيه لنفس العاقل اعتبار

^(١) نظرات في التاريخ لأحمد محمود الأحمد، مجلة الجامعة الإسلامية العدد ٣٣، انظره على رابط المجلة:

<http://www.iu.edu.sa/magazine>

^(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١/٦٠، وانظر القصة في البداية والنهاية ج ١٢/١٠، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم

التاريخ ص ٢٥.

وفيه للمستبصر استبصار
يجري على الحاضر حكم الغائب
وينظر الدنيا بعين النبل
وقال آخر

ليس بإنسان ولا عاقل
ومن روى أخبار من قدم مضى
من لا يعي التاريخ في صدره
أضاف أعماراً إلى عمره^(١)

وبهذا يتضح للقارئ الكريم أن علم التاريخ ينقسم إلى فروع كثيرة، منها علم التراجم والسير، فلنذكر نبذة يسيرة عنه:

علم التراجم ومسالك العلماء في كتابته:

علم التراجم: هو علم يبحث عن أحوال المترجم له. وهو من العلوم الإسلامية التي يفتخر بها على الأمم، وينادي بها في القمم، ونشأته كانت مع نشأة علوم السنة المطهرة، حيث يحتاج إليه لمعرفة أحوال الرجال، الناقلين للأخبار، فيميز الضعيف من صحيح الآثار.

قال القنوجي: وهذا العلم — أي علم أحوال رواة الحديث — من فروع التواريخ من وجه، ومن فروع الحديث من وجه آخر^(٢) هـ.

ويتبين هنا خصوصية علم التراجم والرجال عند المحدثين عن علم التراجم بعامة، لأنه يبحث عن حال الراوي من حيث قبول الخبر أو رده، فهو له متعلق بعلم الحديث وآخر بعلم التراجم. وهنالك ملاحظة وهي أن كتب التراجم الموسوعية مثل سير أعلام النبلاء وطبقات الشافعية الكبرى، يستطرد مؤلفوها عند الترجمة إلى علوم المترجم له، وحوادث أيامه، وغيرها من المسائل التي ربما تبلغ الصفحات، ويمكن أن تستل منهار رسالة خاصة تطبع مفردة. واختلفت أساليب الكتابة عند العلماء، بحسب الأغراض والأهداف، وتفننوا في ذلك وأبدعوا، ويمكن تلخيص ذلك بمسالك:

المسلك الأول: أن يترجم لنفسه، ومن أمثلة ذلك: السيوطي في كتابه التحدث بنعمة الله، وغيره كثير.

^(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١/٦٢.

^(٢) أبجد العلوم ج ٢/٣١.

المسلك الثاني: أن يترجم لمن خالطه وعاشره، كشيخه، مثاله: كتاب الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوي، وهو تلميذ الإمام ابن حجر، أو والده كمحمد الغزي العامري، ترجم لو والده في كتابه بلغة الواجد في ترجمة الوالد.

المسلك الثالث: أن يترجم لمن لم يره عن طريق النقل عن غيره، كسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن هشام، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي.

المسلك الرابع: أن يترجم لمن سيأتي، كالمهدي المنتظر، مثاله: العرف الوردي في أخبار المهدي للسيوطي، ولا يتأتى إلا بالنقل عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، وقد فصلته عن المسلك الثالث لتمييزه.

وهذه المسالك كلها إما أن تحتوي على ترجمة مفردة كالأمثلة السابقة، أو مجموعة تراجم، وهذه التراجم تجمع وترتب على عدة مسالك:

الأول: السنين كشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي.

الثاني: الطبقات كطبقات الفقهاء الشافعية لابن قاضي شعبة، فإنه يذكر طبقات فقهاء المذهب، وقد يكون الذي في الطبقة الأولى مثلاً أصغر من الذي في الطبقة الثانية، فهو لم يتقيد بالسنين وإنما بالأخذ عن الإمام.

الثالث: الحروف الأبجدية، كمعجم المؤلفين لكحالة.

الرابع: نسبة إلى أمر، كورود بلدة، مثاله: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، أو صنعة كالأصوات مثاله: الأغاني للأصفهاني، وغير ذلك مما قد يتفنن به الجامع للتراجم.

وقد يجمع الكتاب بين ترتيبين كالأعلام للزركلي، فإنه رتبته أولاً بحسب الحروف الأبجدية، فإن تشابه الاسم الأول والثاني رتبهم بحسب السنين ولم يستطرد بترتيب الحروف.

وهذه المسالك كلها إما أن تكون عامة، أو تقيد بصفة كالقضاة، والفقهاء، والمفسرين، والأولياء، والولاة، والشعراء، والدمشقيين، والأصفهانيين، إلى غير ذلك من القيود، وقد يقيد بقيد كطبقات مذهب معين من الفقهاء وما شابه ذلك.

وهذه التراجم إما أن تكون عامة بحيث تشمل على جوانب متفرقة من حياته سواء بشكل مختصر أو مطول، أو تبحث في جانب من جوانب سيرته كفقهه وعقيدته وحالاته ومعاركه وسياسته وكتبه وغير ذلك من الجوانب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
